لُغةُ الطفل العَربي

في مَهبِّ لغاتِ العَولمة

د. سليمان إبراهيم العسكري(*)

ليست اللغة اليوم هي ما تمثله الأبجديات المعروفة وحسب، وإنما هي لغة الحواس التي يجدها المتلقي أينما توجه. واللغة التي يتحدث بها الطفل اليوم، لم تكن المدرسة المصدر الوحيد لها، بل عرفنا وجود جماعات الأقران، وأدركنا حضور البيت، وإن أُضيفت إليها في هذا العصر مؤثراتٌ شتى، ربما نطلق عليها لغات العولمة شمولاً، في تفصيل يقودنا للمؤثرات السمعية والبصرية التي تلقن الطفل ما يتعلم، حيث لم يعد طفل اليوم رهنًا بالمؤثرات التقليدية، بل أصبحت المؤثرات غير التقليدية، عبر وسائط الإعلام هي الأوفر حظًّا في تغيير سلوكه، وتبديل لهجته، وتعديل لغته.

هوية المجتمع ـ هوية الطفل:

إذا كانت الهوية المجتمعية هي مجمل السمات الفكرية والملامح الثقافية والنزعات الروحية التي يتميز بها مجتمع ما عن غيره من المجتمعات، وتعبر عن طريقة حياته وعاداته ومعتقداته، والقيم والمثل والمفاهيم الحضارية التي عبرها يتجسد انتماؤه في مقابلتها بغيرها من هويات المجتمعات الأخرى ـ فإن أول وأبرز سمات وملامح الهوية المجتمعية تتمثل في اللغة.

فاللغة هي مستودع التراث وديوان الأدب وسجل المطامح ومعنى الأحلام ومجال الأفكار والعواطف. فالفرد يندمج في المجتمع عبر اللغة. وعبرها وحدها يتلقى تراث أمته الفكري والوجداني والأخلاقي والديني والاجتماعي والسياسي. وبهذا يصبح للغة الدور الأبرز في الدفاع عن الذات، وعن الوجود، من خلال تجسيد الهوية، وإبراز ملامحها أمام الآخر، ولذلك كانت اللغة بلا منازع من أبرز السمات الثقافية. فما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وما من صراع بشري إلا ويُبْطن في جوفه صراعًا لغويًّا، حتى قيل إنه يمكن كتابة تاريخ الصراعات البشرية على أساس صراعاتها اللغوية.

(*) رئيس تحرير مجلتي العربي والعربي الصغير.

ولا ينفصمُ الحديث عن هوية المجتمع حين نتحدث عن هوية الطفل، لانتماء الأخير إلى المجتمع جملة وتفصيلاً، فهو ابن المجتمع الذي يشكله اليوم، وصاحب اليد الطُّولَى في تشكيل مجتمع الغد.

بين اللغة والهوية:

تذكر الإحصاءات أن اللغة العربية لسان أكثر من ٦٠٠ مليون نسمة تنتشر فوق رقعة واسعة بين شعوب آسيا وأفريقيا. وتبدو مسألة تقاطع اللغة مع الهوية، لدى أغلب الباحثين والمفكرين، أمرًا محسومًا وبدهيًّا، حيث يشغل ناطقو العربية تلك الرقعة الجغرافية المحددة بشكل يكاد يكون تامًّا. ولكن بسبب عدم وجود هوية مجتمعية في العالم يقتصر أفرادها على لغة واحدة وثابتة، نجد عدة ظواهر لغوية تتداخل وتتقاطع مع اللغة، إما من داخل المجتمعات المتناسقة أو من خارجها.

وهذه الظواهر اللغوية تعبر عن نفسها في ثلاثة مستويات أساسية، هي:

اللهجات الدارجة والعاميات المحكية من اللغة الأم:

وهي لهجات تعاني قدرًا من الابتذال، كونها ترتبط بالهُوِيَّات الفئوية والإقليمية أكثر مما ترتبط بالهوية القومية للأمة ككل. ويمكننا أن نطلق عليها مصطلح "لغة الحميمة"، كونها اللغة التي تنشأ بين الطفل وأمه، ويكتسبها منها مباشرة لا من المدرسة. فهي في الغالب لغة الأطفال والفئات الشعبية المنتمية إلى مكان محلي محدود لا يتعدى قطر الدولة.

اللغة الفصحى المكتوبة والرسمية:

وهي لغة تحل منزلة التقديس، كونها لغة القرآن الكريم، كما أن لها مكانة رفيعة لأنها ترتبط بالهوية المجتمعية والقومية للأمة ككل. وهي تحظى بصدقية وإجماع على احترامها، ويستخدمها أغلب الكبار في مراسلاتهم الرسمية الهامة كدليل على الجدية والقدرة. ويمكننا أن نطلق عليها مصطلح اللغة المثالية، كونها اللغة التي يتعلمها الطفل بعد أن يشب عن الطوق، وبالتالي ترتبط لديه بسلطة الأب والأنا الأعلى (بلغة فرويد)، وكذلك يكتسبها الطفل من المدرسة والمؤسسات التعليمية وليس من أمه مباشرة. ولذا تكون مصحوبة بقدر من الرهبة، الذي يتقلب بين لحظات التمرد والامتثال.

إن اللغة العربية المكتوبة الفصحى ليست لغة للتخاطب الشائع. ذلك أن استعمالها يقتصر على المثقفين وذلك بسبب أنهم يقرءون الكتب. وذلك بسبب أن الكتب تسعى لاستثمار أغلب الناطقين بالعربية بأن تتبنى الشكل الفصيح نتيجة اختلاف اللهجات الدارجة في البلدان المختلفة. لذلك؛ فأحد العوامل الأساسية المساندة لاستمرار العربية الفصحى هو محاولة المثقفين والكُتَّاب

توسيع سوق منتجاتهم الثقافية لتشمل كافة الناطقين بالعربية على اختلاف لهجاتهم. فالمثقفون العرب حتى الآن لا يملكون أداة أخرى للتواصل فيما بينهم غير اللغة الفصحى. فهي تُستخدم في تحرير الصحف أو عرض البرامج الإذاعية والتلفزة التي تستهدف نطاقًا واسعًا من المشاهدين. ولذا، فهي ما زالت تُعد أداة ثمينة للتواصل والتماسك بين المثقفين العرب. والصحافة، في الواقع، هي التي أخرجت هذه اللغة الفصحى المكتوبة من قدسيتها وأقحمتها في الممارسة السياسية اليومية وجعلت استعمالها، من ثمة، أمرًا عاديًا.

اللغات الأجنبية:

وهي لغات تنتمي في الغالب إلى الثقافات المهيمنة المحيطة بالمجتمع محل الدرس. والتي ترتبط في أغلب الأحوال بحسن إدارة العلاقات الخارجية مع الثقافات الأخرى المحيطة، وغالبًا ما يؤدي إتقانها إلى تحقيق أرباح اقتصادية ومكاسب سياسية لأصحابها، خاصة إذا كانت طبيعة المجتمع محل الدرس تجعله الطرف التابع والأضعف في تعاملاته الخارجية مع الثقافات المحيطة.

وغير بعيد ما نذكره من محاولات بريطانية لتكريس اللغة الإنجليزية عبر المجالس الثقافية البريطانية، وجهود فرنسية عبر ما يوازي تلك المجالس بالفرنسية، ومتابعات ألمانية بواسطة معاهد جوته للثقافة واللغة الألمانية، ومعاهد ثربانتس للثقافة واللغة الإسبانية، وهكذا. في وقت تغيب فيه مثل هذه المجالس الموازية باللغة العربية رغم غنى ثقافتنا بالشعراء العظام، والناثرين الكبار.

يدخل في هذا الإطار أيضًا اللغات الأجنبية التي فرضها الاستعمار على مستعمراته، في إطار تبعيتها له. ويمكننا أن نطلق عليها مصطلح اللغة الغيرية، كونها اللغة التي يدرك الطفل أنها ليست لغته المثالية أو الحميمة. بل هي لغة الآخر، الذي أصبح يحتل موقعًا محوريًا في تصورات الطفل. فالآخر قد يعني بالنسبة له المستعمر الغاصب كما قد يعني أيضًا الحرية المرغوبة، أو قد يعني الآخر الاستغلال الاستعماري، كما قد يعني فرصة الكسب الاقتصادي والانعتاق من أسر الفقر المجتمعي. لقد دخلت اللغات الأجنبية إلى البلدان العربية مع الاستعمار. وبها تم إرساء وتنظيم مجموعة من البنيات الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والثقافية لهذه البلدان.

لقد كانت اللغات الأجنبية هي اللغات الرسمية طوال فترة الاحتلال، وبذلك نشأ نوع من الربط بين اللغة الأجنبية والاستعمار. وأصبح معنى الاستقلال واستعادة الهوية الوطنية يرتبط حتمًا بطرد اللغة الأجنبية من مواقعها الحصينة. وفي دول المغرب، فإن نسبة قراءة الصحف العربية لازالت أقل من نسبة قراءة الجرائد الصادرة بالفرنسية.

وهذه المظاهر الثلاثة من الوجود اللغوي تنشأ في أي مجتمع. ومن الطبيعي وجود قدر من التباعد بين كل مظهر من هذه المظاهر الثلاثة، وذلك نتيجة لأن اللغة لا توجد بعيدة عن التأثيرات

الشخصانية والفردية والفئوية والطبقية التي يعج بها المجتمع، حيث تسود وتعلو بعض النبرات الصوتية لدى فئات محددة بينما تخفت هذه النبرات الصوتية لدى فئات أخرى. فضلاً عن التأثيرات الزمانية والأدبية والثقافية التي تمثل تاريخ هذه اللغة ومسيرتها عبر التاريخ، حيث تثبت بعض الاستعمالات اللغوية وتنقرض أخرى. ووجود التأثيرات الخارجية، والتي تتمثل في درجات وخبرات التناقل والصراعات الحضارية مع ثقافات الغير.

ووجود هذه التأثيرات الثلاثة يؤدي إلى تشكيل درجة حدة التباعد بين المظاهر اللغوية الثلاثة، وإلى قدر من عدم الانسجام والتشوش اللغوي، في المجتمع. وهو التشوش اللغوي الذي يؤدي إلى ما يوازيه في الهوية المجتمعية. وذلك لكون اللغة عاملاً أساسيًّا فيها، فإذا تشوشت حدث تشوش على مجمل الهوية المجتمعية.

تشويه الوجود اللغوي:

تعدد وتشوش مظاهر الوجود اللغوي في المجتمع يقود إلى تشويه الوجود والحضور اللغوي المطلوب، ويؤدي إلى ظهور أنواع متعددة ومشوشة من الهويات داخل المجتمع الواحد. بعبارة أخرى، يؤدي التشوش اللغوي إلى تشوش الهويات. وبذلك تظهر في المجتمع عوضًا عن الهوية الواحدة عدة هويات كل منها غير مكتمل، وغير واضح وغير ناضج، فتصبح إلى التنازع أقرب منها إلى التكامل.

ويمكن أن نحصر حالات التقاطع الممكنة بين اللغات والهويات داخل السياق العربي والأجنبي إلى أربع حالات كما يلي:

١ـ حالة تجانس بين اللغة والهوية: وهي تسود لدى نسبة ٨٠٪ على الأقل من مجموع سكان الوطن العربي.

٢ـ حالة تجانس في اللغة مع اختلاف في الهوية: وتظهر لدى جماعات تتكلم العربية ولكنها لا تشارك العرب انتماءهم القومي (ومن أبرز أمثلتها الطائفة المارونية في لبنان).

٣ ـ اختلاف في اللغة مع تجانس في الهوية: وتظهر لدى جماعات تشعر بانتماء عربي ولكنها لا تتكلم العربية (ومن أمثلتها جماعات في الصومال وغرب السودان)

٤ ـ حالة تصارع في كل من الهوية واللغة: ومن أبرز أمثلتها في السياق العربي الأكراد والجنجويد وقبائل البربر في المغرب والجزائر.

لغتنا العربية ـ إرث رمزي ورأسمال ثقافي:

بينما اقتصر تعريف رأس المال على البناء التحتي لعلاقات الإنتاج بالمجتمع وفق رؤية كارل ماركس، فإن رأس المال الرمزي، الذي ابتكره بيير بورديو يتعلق بالبناء الفوقي للمنتجات الثقافية

بالمجتمع. فبورديو يرى أنه كما يمتلك بعض الأفراد قوة وسلطة على غيرهم بفعل امتلاكهم لرأس المال المادي، فإن أفرادًا آخرين يمكن أن يمتلكوا قوة وسلطة على غيرهم بفعل امتلاكهم لرأس المال الرمزي. والصراعات اللغوية تنتمي لهذا المجال والتصارع على امتلاك رأس المال الرمزي بالمجتمع. لذا، فإن الوضع الأمثل لأية فئة تتقن لغة معينة، يتمثل في أن تصير هذه اللغة هي اللغة الرسمية للدولة. لأن ذلك يمنحها امتيازات تلقائية على غيرها من الفئات التي لا تتقن هذه اللغة مثلها.

من هذا المنظور نستطيع أن نقول إن لغة الآخر تبقى دومًا ملكًا له، فهو يمتلك القدرة والسيطرة الكاملة عليها، مهما تطفل عليها من ولد عنها أجنبيًّا. فاللغة الأجنبية مهما داعبناها وخطبنا ودها، باعتبارها لغة المصالح مرة ولغة الحرية الفكرية مرة أخرى، فإنها لا تسلم سرها إلا لمن يحمل هويتها ومن تربى عليها. ولذا فمهما امتلكنا ناصية اللغة الأجنبية، فإننا نبقى دومًا ضيوفًا عليها مهما تقدمنا في استخدامها. فلا نملكها بل نملكنا. وكذلك الأجنبي في تعامله مع لغتنا. وبذلك فاللغة تُعتبر رأس مال مجاني معطى لأصحابها. فإذا فهمنا الأمر من هذه الزاوية، فربما أحسسنا بضرورة استثمار رأس المال الرمزي هذا لمصلحتنا.

فيمكننا دومًا تمثل لغتنا، مهما كانت مزاعم النقص فيها، بمثابة جزء من هويتنا وكياننا، فمعها نشعر بأننا نملك قدرًا من رأس المال الرمزي، وأن هذا القدر هو خاص بنا. بالضبط كما تؤثر ملكية رأس المال في صاحبها، فتجعله يشعر أنه غير معدم. كذلك يؤثر الشعور بملكية رأس المال الرمزي (اللغة) في أصحابها. ولا يشعر الفرد بالفقر إلا عندما يتخلى عما يملك سعيًا وراء امتلاك ما لا يمكنه أن يمتلكه. وهنا يظهر وجه الفقر الحقيقي، الذي يظل فقيرًا على الدوام.

لقد مثلت اللغة العربية بصفتها لغة القرآن بالنسبة للعربي لغة المقاومة ورفض المستعمر، على مر التاريخ. وهي بذلك تشكل مَعْلمًا بارزًا لهوية الذات في مقابل هوية الآخر. وما زالت اللغة الفصحى ترتبط بهوية المقاومة العربية النابعة من الأفكار الإسلامية والمحلية. بينما ترتبط بعض حركات المقاومة العربية الأخرى باللغات الدارجة، لتعبر عن رفضها للمقدسات.

اللغة وتشكيل الهوية:

هناك صلة وثيقة بين اللغة والتفكير، حيث تتوقف جودة التفكير إلى حد بعيد على قدرة الشخص على تمثل الصور اللفظية البصرية والسمعية لكلمات اللغة التي يصيغ بها أفكاره عن ذاته وعن الآخرين. وذلك يصدق على الكلام الباطن مع الذات. ولهذا، فإن اللغة تمثل عونًا أساسيًّا على القيام بعمليات التفكير والتمثل والتخيل، وعلى تنظيم كل هذه العمليات الذهنية والثقافية.

وبما أن اللغة هي وسيلة تمثيل الأفكار، ونقلها بين أفراد الجنس البشري. فكلما زاد الثراء اللغوي، وتوافرت الكلمات المعبرة عن مختلف الأشياء والمفاهيم، لدى ثقافة ما ـ فإن ذلك يؤدي إلى زيادة مماثلة في قدرة أفراد هذه الثقافة على التفكير والتعبير ونقل الأفكار والتوافق مع العالم ومع الآخرين. مما يؤدي إلى أن الأفراد الأكثر ثراء وقدرة فيما يخص مفرداتهم اللغوية يصبحون حتمًا أكثر فاعلية ودقة من الأفراد الأقل ثراء وقدرة من الناحية اللغوية. ويمكننا أن نقول إن الثقافات التي تحرص على زيادة ثروتها ومفرداتها اللغوية هي بالتأكيد أكثر فاعلية وتعبيرية وقدرة من الثقافات التي تخبو وتتهالك ثرواتها ومفرداتها اللغوية.

ذلك أن تقدم الفكر مرتبط أشد الارتباط بثراء اللغة، كما أن ضحالة اللغة وتخلفها، والفقر في الألفاظ، هو من أهم مظاهر الاضمحلال الفكري والذهني وبدايات الانهيار لأية ثقافة. فجفاف اللغة وعجزها عن التطور يضع العراقيل في طريق التفكير الاجتماعي والفردي.

ولما كانت اللغة ترتبط بالهوية، إذًا فإحدى علامات ضرورة تطوير الهوية تتجلى في حدوث تطور أو تغير في استعمالات وأخيلة اللغة. فالتغير الكبير الذي طال الشخصية العربية في فجر الإسلام وصدره يمكن بالتأكيد عزوه إلى التأثير اللغوي الحاسم للقرآن، الذي غير الأخيلة والتصورات والمعاني عما كانت عليه في الشعر العربي القديم وقت ظهوره.

وكذلك فالعكس بالعكس. فإن لوحظ وجود تطور في الهوية؛ فإن ذلك لابد أن يستتبعه تطور في أخيلة واستخدامات اللغة. وذلك نظرًا لكون اللغة أحد المكونات الأساسية للهوية.

فإذا عجز أحد الطرفين (الهوية ـ اللغة) عن موازاة التغير أو التطور الذي طال الطرف الآخر؛ فإن ذلك يشير إلى وجود خلل شديد وغير تلقائي يحتاج لإصلاح، لأنه ينافي حركة التطورات الحضارية المستقرة باستقرار نواميس الكون.

في الأزمنة الحديثة، حدث تطور كبير طال الهوية العربية، ولكن اللغة العربية الفصحى عجزت عن أن تعبر أو تجسد هذا التطور، فبقيت عند مرحلة زمنية معينة، بينما تجاوزتها الهوية العربية، وتركتها عند محطتها الزمنية العتيقة ومضت إلى حال سلبيها. وهذا يفسر بشكل جزئي لماذا تخلى العرب عن لغتهم لما شعروا بأنها لم تعد تناسب تعبيرهم أو أخيلتهم التي تطورت مع العصر، دون أن تتطور اللغة العربية. لذا أصبحنا بحاجة إلى تجديد "أخيلة وصور" اللغة العربية، وتلك مهمة قد تكون أكثر ضرورة وإلحاحًا من تجديد الفكر العربي، بل هي أسبق منها.

فقط تصور كاتبًا كبيرًا محبًّا للغة العربية الفصحى ويريد أن يستخدمها لكتابة قصة ما. فإذا كتب أن البطل ركب سيارته، فإنه لن يستطيع أن يمضي إلى أبعد من ذلك ليصف ما يفعله البطل مع الأجهزة الموجودة داخل "كابينة القيادة". فكل ما سيصادفه هي ألفاظ وكلمات أجنبية وغير

عربية، ليدرك الكاتب في النهاية أنه أصبح عاجزاً عن وصف ما يدور حوله باللغة العربية الفصحى. فالكاتب الملتزم باللغة العربية الفصحى لن يتمكن من تصوير ما يحدث أمامه إذا اقتصر على اللغة العربية الفصحى، فما بالك لو حاول أن يصف ما في خياله.

أما الكاتب الذي يستخدم اللغة العامية الدَّارجة، فسيجد نفسه يستخدم تعبيرات مقتبسة بالكامل من لغات أخرى. وهذا يحدث في السياق العربي بالفعل. حيث نجد أن كتابات كثير من الكتاب والشعراء هي عبارة عن كولاج بين اللغة العربية ولغة أجنبية وكذلك اللغة الدارجة. يبدو الأمر وكأنه أصبح من المحتم على كل من يريد أن يكتب أن يستخدم اللغات الأجنبية، وأن يتخلى عن اللغة العربية. فلماذا؟

لأن اللغة العربية ظلت بمنأى عن المعاصرة فأصبحت أخيلتها حبيسة العصور القديمة التي مضت، وانعزلت عن الواقع الحاضر، وتركت المجال للغات الأخرى. واللغات الأخرى التي تنتمي إلى حضارات أخرى هي في الأصل التي ابتكرت كافة مكونات السيارة، وبالتالي تمكنت من أن تطلق عليها أسماءها وتوصيفاتها الخاصة، غير عابئة بإمكانات الترجمة.

ولذلك أصبحت اللغة الأجنبية منتمية إلى العالم المعاصر، بينما انسحبت منه اللغة العربية الفصحى وتدثرت برداء قداستها، وقعدت عن العمل. هذه الأزمة التي تواجه الكاتب الذي عجز عن وصف العالم المحيط به بواسطة اللغة العربية التي انسحبت من الواقع لمصلحة اللغة الأجنبية، تماثل بالضبط نفس الأزمة التي تواجه كافة كتاب العربية في كافة المجالات، سواء العلمية أو الإنسانية أو الاجتماعية، عن تصديهم للكتابة عن أي ظاهرة.

إن هناك أعداد هائلة من مواليد الألفاظ والمنحوتات والمشتقات الأجنبية الجديدة التي تُضاف كل يوم وكل ساعة إلى العالم، من مخترعات وتقنيات غيرت في توقعاتنا وأخيلتنا. ومن ناحية أخرى، هناك أعداد هائلة أخرى من وفيات الألفاظ العربية التي تموت كل يوم وكل ساعة، لأنها ما عادت تصلح لوصف ما يدور حولنا. ومع كل ولادة في ألفاظ اللغة الأجنبية وكل وفاة في ألفاظ اللغة العربية، يموت جزء من هويتنا ويضمر بينما ينضاف جزء إلى هوية الأجنبي وتستحكم سيطرته. فنسقط وننهار بينما هو يتعملق ويسود.

وهكذا كانت ردة فعل اللغة العربية أن تصرفت وكأنها عازفة وخارجة عن العالم المادي. لكن الأمر لم يقتصر على أشياء العالم المادية. بل الأدهى من ذلك أن أصبحت عواطفنا الحميمة نفسها ما هي سوى كلمات مترجمة عن أصل أجنبي. لقد تاهت وانقرضت الكلمات والألفاظ التي صكها العرب، من مثل: العصبية لدى ابن خلدون؛ وحلت محلها كلمات مترجمة مثل الإثنية والعنصرية والديمقراطية والبطريركية. لقد تاهت وانقرضت كلمة الروح والنفس الفاعلة والنفس

الأمَّارة بالسوء والنفس المطمئنة كما فهمها ابن القيِّم الجوزية وأبو حامد الغزالي؛ وحلت محلها كلمات أخرى مثل اللاوعي وما تحت الشعور والهو والليبيدو وميكانيزمات الدفاع والبارانويا والباثولوجيا الإكلينيكية إلى أخره، مما لم يعد أصله عربيًّا، في الفهم والمنشأ والاستعمال.

وهكذا أصبح العربي إن حاول وصف أو فهم العالم من حوله تغترب عنه المفاهيم وتغيم عنه المعاني وتهرب منه الكلمات منسلة إلى قبورها. وكل هذا ينتقص من الهوية العربية، ويؤثر سلبًا على الفكر العربي والخيال العربي، وبشكل حاسم. فيبدو الأمر وكأنما تنسحب اللغة العربية الفصيحة من مجال فهم العالم، سواء الخارجي أو الداخلي. وأنها أسلمت أمرها وعنانها للغات الأجنبية، التي أصبحت تصنع هذا العالم وتفككه وتعيد تركيبه وفقما أراد لها هوى أصحابها الأجانب.

وإذا كان ذلك حال الكُتَّاب، للأدب والتاريخ، وحال المفكرين في العلوم والفنون، فكيف لنا أن نتصور حال أطفالنا، وهم يدقون أبواب المعارف الجديدة عبر آخر وأحدث تقنياتها؟ إن أجهزة البلاي ستيشن والآي بود وألعاب الكمبيوتر بأسمائها الأعجمية، وأبطال السينما والرسوم المتحركة، هم أسلس نطقًا، وأيسر لفظًا على ألسنة أطفالنا، مما هو متاح موازٍ باللغة العربية، وما أقله إذا ما قورن بما هو مكتسحٌ.

فإذا كانت الهوية التي نأمل فيها هي تلك التي عمادها اللغة العربية الفصحى. فلا يجب أن نعتبر هذه الهوية بمثابة قالب منحوت على هيئة أي شكل مستقر من الأشكال التاريخية الماضية في تاريخنا أو تاريخ غيرنا، بحيث نكتفي بأن نصب فيه ذواتنا أو نصك على مقاسه مفاهيمنا وأخيلتنا عن الوطن والهدف والمعنى والطموح. بل إن الهوية التي نسعى إليها هي دومًا هوية نامية وفق إبداعات التحقق والتطوير.

فالهوية العربية التي نسعى للتمكين لنشأتها لدى أطفالنا ينبغي أن تكون هوية غير لوامة للذات، فلا ترنو إلى الآخر وتلقي عن كاهلها حمولاتها ومسئولياتها وَجَلاً وإشفاقًا واعترافًا بالفشل. بل علينا أن نعلم أنفسنا وأطفالنا كيف نعتزّ بلغتنا ونحترمها ونسعى إلى إتقانها كي ما نبتكرها في هذا السعي نفسه. فنكتسبها وتكتسبنا، بما يؤهلها ويؤهلنا للمضي في الحياة في هذا العالم فاعلين لا منفعلين. ومن هنا تعن لنا البداية الحقيقية والصحيحة عبر البدء بحب نصوص اللغة العربية الفصحى والإقبال عليها بدلاً من النفور منها.

إن قراءة وتلقي النصوص العربية، تكاد تكون مهمة عسيرة لا طائل من ورائها، وكأنها محاولة لاستنطاق ما لا ينطق. من هنا تأتي الهجرة إلى نص أجنبي بديل، فيقارب النص الأجنبي بكثير من الإحساس بالألفة. ذلك أنه يصادف الأبجدية الأجنبية في كل مكان ينظر إليه: على

لافتات الشوارع، وعلى شاشة التلفاز وفي كافة الأجهزة العصرية صغرت أم كبرت، وفوق العملة الوطنية التي يتداولها وكافة الأوراق التي تسمح له بالتداول المعرفي، وعلى شاشة الإنترنت، وعلى سطح سيارته وبداخلها، بل وعلى ملابسه وحذائه. كل هذا يجعله يشعر بقدر كبير من الألفة والاعتياد على الأبجدية الأجنبية. بينما تنسحب الأبجدية العربية شيئًا فشيئًا من مساحات النظر، مفسحة المكان والأذهان للأبجديات الأجنبية.

هكذا تُزاح الأبجدية العربية من المجال البصري العربي لتصبح نسيًا منسيًا، بينما تحتل الأبجديات الأجنبية أكبر حيز من المساحات البصرية التي يتعرض لها الإنسان والطفل العربي في كافة نطاقاته ومناشطه واستعمالاته الحياتية اليومية.

تنشئ هذه الظاهرة واقعًا جديدًا وهجينًا ذا تأثيرات سلبية للغاية على أذهان السكان العرب. وتكمن الخطورة في أن انزياح الأبجدية العربية واحتلال الأبجدية الأجنبية للمساحات التي تشغلها يتم بكل هدوء وطبيعية، دون أن يلفت إليه أنظار أغلب الباحثين عن سر الأزمة الحالية التي تتعرض لها الهوية العربية واللغة العربية.

ما عليك سوى أن تطلق البصر في المساحات التي تمتد أمام ناظريك في أي عاصمة عربية وتقيس بشكل سريع المساحات التي تحتلها الأبجدية الأجنبية وتقارنها بالمساحات التي تحتلها الأبجدية العربية. ضع الأرقام إلى جانب بعضها واستخلص النتائج. من المؤكد أنك ستجد الأبجدية الأجنبية طاغية على العربية في العواصم العربية. ويبدو الأمر وكأنما أصبحت اللافتات المكتوبة بالأبجدية العربية تحتاج إلى إعادة كتابتها وصياغتها بالأبجديات الأجنبية كي ما تحصل على حق الوجود في المساحة البصرية للذات العربية. وهي ظاهرة لا نجد مثيلاً لها في عواصم الدول الأجنبية، لوقارنا المساحات البصرية التي تحتلها الأبجديات الأجنبية بغير الأجنبية.

فما هي إذًا التأثيرات التي نتوقعها من بيئة بصرية تحتل فيها الأبجدية الأجنبية أغلب وأرقى المساحات بينما تنزوي فيها الأبجدية العربية إلى المساحات الأحط والأقل شأنًا.

بالطبع لابد أن يؤدي هذا إلى تكون انطباع لا يمحى لدى الذات العربية، بأن كل ما يُكتب بالأبجدية الأجنبية، لابد أن يكون أرقي وأرفع شأنًا مما يكتب بالأبجدية العربية. ولن يكون هذا الانطباع سوى امتداد منطقي لما تصادفه العين العربية في بيئتها البصرية.

على الجانب الآخر، يبدو أن من أسباب استمرار أعمال المفكرين الغربيين في الحياة يعود بدرجة ما إلى إتقان المصممين والقائمين على طباعة هذه الأعمال لفن الإيحاء والتسويق بمتطلباته من التغليف والتصغير بما يلائم حياة القارئ المعاصر.

وإذا تحدثنا عن ذلك بالنسبة للقارئ الناضج، فما بالنا حين يكون الحديث عما هو موجه للطفل. ففي حين يتم تبسيط المعارف والعلوم بأكثر من وسيلة لأطفال الغرب، بات على الطفل العربي ألا يطمع في أكثر من حكاية صماء، أو منهج دراسي عقيم، يعرفه بجذوره، فكيف نشده إليها؟

هذا عن الأسباب المتعلقة بالشكل. أما الأسباب المتعلقة بمهارة التعامل مع مضمون أمهات الكتب الفكرية العربية، فيمكن إجمالها في ضعف تناول وفهم اللغة العربية الفصحى لدى أغلب القراء العرب، مقارنة بقدرتهم على تناول المطبوعات المكتوبة باللغات الأجنبية. وهذا يؤدي إلى عجز العربي عن استيعاب وفهم النصوص التراثية العربية الهامة، رغم قدرته على استيعاب وفهم النصوص الأجنبية التراثية. وهذا يعمل بالضرورة على تجفيف منابع الفكر العربي والأخيلة العربية ويوقف مسار الاتصال والتطور في الهوية العربية.

فهذا العجز في التعامل مع النص التراثي العربي المقرون بالقدرة على التعامل مع النص التراثي الأجنبي، لابد أن يؤدي إلى نوع من القطيعة مع التراث العربي. ولكنها ليست قطيعة معرفية، كتلك التي تهدف إلى إبداع الجديد بتجاوز القديم. بل هي قطيعة لغوية، من النوع الذي يوقف سريان الدم في جسد الإبداع ويقتله.

فالأدب والفلسفة والعلم وحتى الصحافة وجميع فنون الكتابة العربية ـ كما رأينا ـ تعاني من هذه القطيعة اللغوية معاناة شديدة، يتجلى فيها اغتراب أخيلة الأدبيات العربية القديمة عن فعل القراءة المعاصرة. وتغرب الأخيلة المعاصرة عن الأخيلة القديمة وعن ألفاظها ولغتها. فأغلب من يقرءون أبياتًا من المعلقات يشعرون بكثير من عدم الألفة فيها، بينما لا يشعرون بمثل هذا إذا ما قرءوا إلياذة هوميروس مثلاً.

نحن لا نتكلم عن قطيعة معرفية. فهذه ما زالت موضوع خلاف بين أنصار القطيعة المعرفية وخصومها. ولكن ما لا يختلف عليه اثنان هو أن القطيعة اللغوية هي نوع من العجز عن فهم التراث وليست أبدًا نوعًا من التجاوز. رغم أنه من المفترض زمنيًّا حدوث قدر من التطور والتقدم الإدراكي بيننا كخلف وبينهم كسلف. بمعنى أنه من المفترض أن لا يستعصي علينا فهمهم وتغلق دوننا معانيهم ومقاصدهم كما هو حالنا اليوم.

كل هذا يدور، بينما لا أحد يبدو وكأنه يهتم بما يطال اللغة العربية من عجز، بعدما تفرق دمها بين مجامع ومعاجم اللغة، فآثرت أن تنسحب كمفعول به وتركت الساحة خالية للغات الأخرى تفعل فيها كيف تشاء. وانطبعت الهوية العربية بطابع لغتها فأصبحت مفعولاً بها ولم تعد فاعلة.

إنه لا فكاك من وضعنا السلبي في العالم دون أن نمكِّن للغتنا العربية الفصحى من أن تشكل وعينا بالعالم وتعيد توصيفه وفق أخيلتها وتطور نفسها لتتجاوز محنة احتضارها. فتنتعش الأخيلة وتحيا المعاني وتنبض الكلمات بالحياة وتسرى الدماء في الألفاظ، فيستيقظ وعينا وتستفيق هويتنا وتملأ بلاغتنا ومبتكراتنا العالم من جديد، كما ملأه في الماضي شعراؤنا ومفكرونا، الذين صاغوا العالم بكلماتهم وأفاضوا على الآخرين من نور حضارتهم.

وقبل أن يتحقق ذلك لن نكون سوى في حكم المساجين في سجن صَدِئ قديم، قضبانه مسبوكة من كلمات لغة عاجزة عن إطلاق سراح وعينا الهادف لفهم العالم وتغَييره.

إن الخروج من هذا السجن لا يتم بالتخلي عن اللغة. بل لا بد أن يتم عبرها. فلغتنا هي السجن، كما أنها هي الحرية ذاتها. لأن اللغة بها كل مفاتيح البناء الفوقي والفهم البشري ومفاعيل الهوية الذاتية والجمعية. فنحن مربوطون بها، شئنا أم أبينا، إلى أبد الآبدين.

الغريب أن نصادف من المفكرين العرب من يسارع إلى إلقاء المسئولية واللوم على اللغة العربية ذاتها. فيصفها بالتحجر والعجز عن استيعاب التطور. وكأنما يحاولون بذلك نفض أيديهم مما أصاب اللغة بإرجاع أمرها إليها، كي ما تبدر أمرها بنفسها. نحن نرى أن مثل هذه المحاولات إنما تعبر عن خيال تشخيصي لا يصلح إلا للشعراء المنسحبين من الواقع والعازفين عن تغييره. فشَخْصَنة اللغة بهذه الطريقة بغرض تحميلها المسئولية عن أوزار الثقافة العربية لا يثمر سوى رؤية شعرية انسحابية، تفت في عضد الذات وتسبغ الشرعية على اللغة الأجنبية.

نظن أنه انطلاقًا من الوضع الراهن للثقافة العربية، لا يصح منطقيًا إلقاء اللوم والتبعة على اللغة، وتحميلها المسئولية كما لو كانت كائنًا مالكًا لزمام أمره باتخاذ قرار التطور أو التوقف أو بالتجاوز أو الانحسار. فأصحاب اللغة هم مُلاَّك أمرها، من جهة التطوير، بينما هي مالكة أمرهم في التوصيف والتصوير. يبدو أن أمر التطوير اللغوي للعربية يحتاج إلى الانتقال من إلقاء المسئولية على اللغة إلى تحمل المسئولية عن ما أصاب اللغة.

واللغة لا تتطور من تلقاء ذاتها، بل بفعل أصحابها. وهنا بالذات تتضح أهمية الطفولة. ولكن قبل أن نستفيض في درس مسألة الطفولة دعونا نلم بكافة أبعاد الخطر الكامن في تقاطعات اللغة والهوية، كما كشفناها أعلاه.

في مواجهة الغزو الثقافي:

بدأت أبعاد الخطر المحيق بلغتنا العربية وبالتالي بهويتنا العربية في التبلور والتكاثف بشكل أكبر من أي وقت مضى. فقد بدأ يتفاقم لدينا جميعنا الإحساس بما يمكن أن نطلق عليه قلق الهوية،

مع اختلاف ردات الفعل بين منسحب وملتزم. فقد بدأ الفكر العربي يظهر مخاوفه من تأثير الغرب عليه وعلى العالم الذي ما عاد العربي يستطيع وصفه أو فهمه أو الكتابة عنه أو القراءة عنه إلا بكلمات أجنبية وبأبجديات غير عربية. فقد أضحى العالم الذي نعيش فيه وكأنما هو واقع بأسره في قبضة احتلال يملي عليه مفاهيم وأخيلة ومعاني جديدة غريبة عنا.

ويحتوي مصطلح (الغزو الثقافي) على مفهومين متناقضين، إيجابي وسلبي، فالثقافة ذات طبيعة إيجابية؛ بينما الغزو ذو طبيعة سلبية. فكيف يجتمع النقيضان في مصطلح واحد؟ هذا ما يبرر التمويه مرة أخرى.

في العصور السابقة، هدف الغزو إلى احتلال الأرض. أما الغزو الثقافي، في العصر الحالي، فيهدف إلى احتلال الذهن. وبذلك فهو أخطر من الغزو العسكري، لأنه لا يتطلب جحافل عسكرية لتنفيذه. فالغزو العسكري يستمد قوته من آليات الإخضاع الخارجي، بينما يعمل الغزو الثقافي على آليات الإخضاع من الداخل، بما يجعل الوضع يبدو وكأنه تعمية للحال، فيظهر الإخضاع على أنه شيء آخر غير الإخضاع. فما يزال أمر الغزو الثقافي، استتباعًا لذلك، محيرًا لدى الكثيرين، إذ ترى فئة من الناس أنه ليس غزوًا، فتختار له تسميات أخرى، وتهون فئة أخرى من شأنه على أن الحديث عنه وعن مخاطره ألعوبة أو وهم، بل إن فئة ثالثة تدعو له سبيلاً للمثقفة، ويوردون حججًا لا نهاية لها عن العلاقات الثقافية بين الشعوب واستكمال شروط النهضة. والخلاف الدائر حول الحملة الفرنسية على مصر: أنعمة هي أم نقمة؟ أكبر دليل على هذا التمويه.

ولكن ردًّا على هؤلاء نقول إنه إذا كانت دولة عظمى مثل فرنسا تتوجس وتشكو علانية مما أطلقت عليه "الغزو الثقافي الإمبريالي" القادم من الولايات المتحدة، بينما هي جزء أصيل من الغرب، فهل يليق بنا نحن ألا نلقي إليه عظيم بال؟

بالطبع ليست كل مشاكلنا منبعها الاستعمار، ولكن لولا الاستعمار ما استفحلت هذه المشاكل واستعصت على الحل بالشكل الحالي. لكن في كل الأحوال ليس من المشروع توظيف مقولة مسئولية الاستعمار كمبرر لعدم التغيير بمبادرة الذات.

وتتعدد مجالات الغزو الثقافي. ولكنها جميعًا تركز على تسفيه وتشويه ثقافة الذات المتلقية، مع إعلاء وتقديس ثقافة الآخر المصدِّر للثقافة. وهو ما يدعمه السقوط في ما يشبه النزعة المازوخية الثقافية، التي تتلذذ فيها الذات بالعذاب الذي يفرضه عليها الآخر، بل وتسعى للاستزادة منه. وفي حال ثقافتنا العربية، يمكننا أن نذكر محاولات كثيرة لمثل هذه الغزوات الثقافية التي تعاملت معها الذات العربية بكثير من المازوخية. فهناك الحملة التي تروج لمقولة تخلف اللغة العربية، والحملة التي تروج لمقولة عدم إنتاج الحضارة العربية إلا للإرهاب؛ والحملة التي تروج لمقولة

انتشار الإسلام بحد السيف، والحملة التي تروج لمقولة استبداد الشخصية الشرقية والعربية وعجزها البنيوي عن الممارسة الديمقراطية.

لا يعني ذلك استعداء الآخر أو تنصيبه عدواً، لا لشيء سوى لأنه يحاول ترويج ثقافته لدينا. بل كل ما هنالك أننا ندعو إلى حذر أكبر وتبسُّط أقل في الترويج للثقافة الغربية في السياق العربي. ذلك أن كل ثقافة تروج لمنظومة مترابطة ومحددة من المفاهيم والقيم والسلوكيات التي قد تصلح لأناس ذوي هوية محددة وظروف محددة، بينما لا تصلح لأناس آخرين ذوي هوية مختلفة وظروف مختلفة. فمن المؤكد أن كل أمة تنتج الثقافة التي تلائم هويتها وظروفها الخاصة.

وقد حاول علماء اللغة الغربيون حاولوا ابتكار لغة عالمية تتوحد فيها اللهجات واللغات، وارتأوا فيها حلاً لأغلب مشكلات العالم. وبالفعل بدأ بعض العلماء الهامين في ابتكار ما أطلقوا عليه لغة الاسبرنتو العالمية. إلا أنه بدراسة أبجدية وصوتيات هذه اللغة العالمية الجديدة ثبت أن ٩٥٪ من جذور لغة الاسبرنتو العالمية قد أُخذت من مصادر اللغات اللاتينية والجرمانية والسلافية، بينما تم تجاهل اللغات الأخرى غير الأوروبية. فهل تصلح هذه اللغة لتكون عالمية كما تدعي؟ إن فشل محاولة اختراع لغة الاسبرنتو العالمية يثبت القوة اللاواعية لاشتغال دوافع التحيز والمركزية الغربية على رأس المال الرمزي، بغرض احتكاره وتشييده على بقية العالم، ولو كان ذلك قد تم بطريقة غير مقصودة أو غير واعية.

وهذا يعنى أن الغربيين حتى لو أرادوا تقديم شيء ثقافي بنية صافية وخالصة، فإنهم لن يستطيعوا إلا أن يسقطوا في نقيصة التحيز والمركزية. فذلك يسري على الجميع: غربيين وعرب. فمن جبلة الإنسان أن يتحيز ويتمركز حول ما يعرف وضد ما يجهل.

اللغة والطفل.. رؤية متفحصة:

إذا انتقلنا إلى مجال أدب الأطفال لوجدنا أن كل أمّة تُنتج أدبًا ملائمًا لأطفالها هي بالذات، ومعبراً عن نظرتها إلى حاضر الطفل ومستقبله، ومؤديًا إلى إمتاع الطفل ومساعدته على التكيُّف مع مجتمعه. ولا يجب أن يتوقّع أحد أن يكون هذا الأدب سلبيًّا من وجهة نظر أصحابه ومنتجيه، ولكن من المتوقع أن تتباين الأمم في ثقافاتها وأنواع الآداب التي تصلح لأطفال كل منها. وكذلك من المتوقع أن تسعى الأمم القوية إلى فرض ثقافاتها على الأمم الضعيفة لتمحو هويّتها وتجعلها تابعة لها. كذلك من المتوقع أن يتحول أدب الأطفال المترجم في عصر المعلومات والتقنيات والأقمار الصناعية الحالي، إلى وسيلة فعالة في تغريب الطفل العربي عن واقعه ومجتمعه وأمته. فالتغريب هو شعور بالحنين نحو ثقافة الغرب مصحوب بنفور من ثقافة الشرق. ولما تستحوذ مثل هذه المشاعر على قلوب أطفال صغار، فإنهم لا بد ينشئون متمنين أن يروا هزيمة ثقافتهم الشرقية

محل نفورهم تحت وطأة الثقافة الغربية محل سرورهم. وهو فعل أشبه بالمازوخية، التي يشير علم النفس إلى كونها تنشأ عندما يتجسد موضوع التعلق والحب، في الآخر وخارج الذات. فيحدث التوحد بالآخر، وتتلذذ الأنا بالعذاب الذي يصبه عليها هذا الآخر.

بالطبع من الممكن ألا تتم هذه الغزوات الثقافية وكل الاستجابات المتواطئة عليها مع سبق إصرار وترصد من الفاعلين. بل يجوز أن تحتوي على كثير من حسن النية والجهل والخطأ في تقدير الأمور والميول النفسية اللاواعية. لكن كل هذا لا يجب أن يُتخذ كذريعة لتمرير أو التغطية على أهداف الغزو الثقافي.

فإذا وضعنا أفلام الكارتون الغربية الشهيرة "توم أند جيري" تحت ميكروسكوب تحليل المضمون، لنرى نوع الرسائل الفكرية التي توصلها إلى أطفالنا، فسنجد كيف تدور أغلب قصصها حول الفأر "جيري" صغير الحجم، الذي يتمكن في أغلب الحالات من هزيمة القط "توم" كبير الحجم. وذلك عبر كمية من المقالب المضحكة.

تدور أيديولوجية أفلام توم أند جيري حول أن الصراع هو معنى الوجود. فإن لم يتغلب الفأر على القط، فإن القط سوف يلتهمه. وهكذا يمكن أن يتوحد الطفل بشخصية الفأر وينظر للحياة من منظور أن هناك قطًّا كبيرًا يهدد بالتهامه. وتصبح الحياة بالنسبة له إما أن تحبك المقالب للآخرين وإما أن يلتهموك. ومن غير المستغرب ألا يحدث وفاق أبدًا بين توم أند جيري، إلا نادرًا. وهو ما يعلم الطفل أن الصراع هو جوهر الحياة، وأن السلام والتعاون هي لحظات نادرة وعابرة.

مثل هذا المضمون الإيديولوجي يصلح للمجتمعات الغربية التي تُعتبر فيها ميزة التنافس أقرب إلى الفضيلة. ولكنه لا يصلح للمجتمعات الشرقية التي تعتبر أن فضيلة التعاون أهم من التنافس.

وعلى هذا المنوال تجد أن أغلب القصص المترجمة، إنما تأتي ملائمة للأبعاد الفكرية والأيديولوجية الملائمة للثقافة التي نشأت فيها، والتي تتعارض في غير قليل مع الثقافة العربية والشرقية التي ينتمي إليها الطفل العربي. ذلك أن أدب الأطفال داخل كل ثقافة إنما يأتي موطدًا لأبعاد الهويّة الخاصة بهذه الثقافة. ولا يصلح بالضرورة حين يتم نقله أو ترجمته إلى ثقافة أخرى. بل قد يكون ضرره أكبر من فائدته.

لذلك فأشد مهام رؤساء تحرير مجلات الأطفال خطورة إنما تدور حول تفحُّص مضامين الأعمال التي تُنشر على صفحات مجلاتهم، لضمان ملاءمتها للثقافة العربية والقيم التي يرتجي إكسابها للأطفال. وهي عملية شاقة تتطلب من البصيرة الشيء الكثير.

وهذا ليس ضد انتشار أدب الأطفال العالمي داخل الثقافة العربية، لكنه يجب أن يكون متوافقًا مع الثقافة والهوية العربية التي يحتاجها الطفل العربي في مرحلة التنشئة الاجتماعية. أما أن يكون الأدب الأجنبي مناهضًا للثقافة والهوية العربية التي يحتاجها الطفل العربي في مرحلة التنشئة الاجتماعية، فهذا ما لا نعده مقبولاً. ومن هنا تبدو أهمية فحص الأدب الأجنبي الذي يجد طريقه للنشر في مجلات الأطفال العربية.

قصور الأدب العربي المقدم للأطفال:

وإذا كان الأدب وسيلة لإثراء خيال الطفل، ودفعه إلى التمني والتمسك والتفكر في عوالم تصورية محددة مع نبذ عوالم تصورية مناقضة لها ـ فإن الأدب العربي يمتلك ميزة على الأدب الأجنبي فيما يخص الطفل، وهي تتمثل في اللغة العربية، التي يفهمها أغلب الأطفال أكثر مما يفهمون لغة الأدب الأجنبي. ولكن إذا قصر الأدب العربي عن تأدية رسالته التخيلية، فإنه إنما يدفع بالطفل المتعطش في سناه الصغيرة للتخيل إلى بذل مزيد من الجهد لتعلم اللغة الأجنبية والاطلاع على العوالم المتخيلة التي تحتويها.

فإذا ما يئس الطفل من البضاعة التخيلية العربية ووجد ضالته في البضاعة التخيلية الأجنبية، فيمكننا أن نعتبر هذه الخطوة الأولى على طريق اغتراب الطفل، وبالتدريج اغتراب جيل عربي بأكمله في المستقبل. وقد تترتب على ذلك نتائج خطيرة للغاية. فتخيل أنه من الممكن أن تترتب نتائج مستقبلية خطيرة نتيجة لأن إحدى القصص العربية المنشورة في إحدى المجلات لم تلق قبولاً لدي الطفل، بينما تصادف أن لقيت قصة أجنبية استحسانه.

قد يظن البعض أن في هذا مبالغة. إلا أنها مبالغة حقيقية في افتراضاتها وفي نتائجها. فنظرية التعقيد التي يعمل وفقًا لها العالم تؤكد على أن الحركة الخافتة لجناح فراشة لا تذهب سدى. بل إنها تؤثر على مسار أحداث هامة في أماكن متفرقة من العالم. فقد تتسبب بما تولده من تغيرات طفيفة في اتجاهات الريح إلى بدء وتدشين سلسلة كاملة من تراكمات حركة الطبيعة التي تصل ذروتها في النهاية لتسبب انهيارًا ثلجيًا أو إعصارًا.

الخيال الأجنبي الموجه للطفل العربي:

أغلب أخيلة الأدب المترجم الأجنبي تقدم للطفل عوالم وهمية لا يصادفها في عالمه العربي. وهي بذلك تضع الطفل العربي في عوالمها هي غير المتحققة عربيًا. وضمن هذا العالم التخيلي الغربي قد يرى الطفل أبطالاً وهميين أجانب بدلاً من أبطال الواقع العربي، بل قد يحدث بين الأبطال العرب والأجانب قدر من التعارض. فينتصر البطل الغربي على البطل العربي. فينشأ الطفل ولديه فرضية مسلم بها تتلخص في أن انتصار الأجنبي على العربي أكيد.

فإذا تم هذا قبل أن يكون الطفل العربي قد تعلم أن يحب ما يجده في بيئته وأن يتعامل مع الأخيلة المتاحة لديه في هذه البيئة، فإن ذلك يؤدي بالطفل العربي إلى الإحساس بالغربة داخل عالمه والرغبة في الهجرة الذهنية إلى العوالم الأجنبية التي يصادفها في القصص الأجنبية.

هكذا تصبح هناك فرصة كبيرة لأن يؤدي الارتباط بالعوالم الأدبية الأجنبية المتاحة في الأدب المترجم إلى جعل الطفل العربي يغترب عن مجتمعه وثقافته، ويرنو إلى ثقافة وهويّة أخرى، مما يجعله لين التفريط في ثقافته وقابلاً للتنازل والتخلي عنها بسهولة، بما يسلبه هويّته الحضارية ويلحقه بأخرى لا أمل له في الوصول إليها خارج الخيال. فيقدم مزيداً من التنازلات مع كل مرحلة من مراحله العمرية. فينشأ تابعًا لهذه الحضارة الغربية لا مبدعًا متجاوزًا لها. لأنه وضع هذه الحضارة بمثابة المثال الذي يرنو للوصول إليه لا إلى تجاوزه والتمرد عليه.

يصبح الأمر أكثر مأساوية إذا عجزت القصص العربية عن تقديم ما يساعد الطفل العربي على بلوغ الهوية المرجوّة، وتشجيعه على تجاوز العقدة الغربية والتمرد عليها.

وتلك مسئولية أساسية يجب أن يضعها كاتبو قصص الأطفال في حسبانهم دومًا.

فلا شيء في عصر العولمة وثورة المعلومات والأقمار الصناعية يستطيع تحصين الطفل العربي من الغزو الثقافي إذا بقيت الأمة والذات واللغة العربية في موقع المنفعل لا الفاعل. وإذا قصرتُ الحديث على ضرورة مواجهة الاختراق الثقافي بالكلمات والأمنيات، دون الإنجازات والإصدارات. وهناك عدة عوامل ومسببات أدت إلى الانحسار الحالي الذي نشهده للغة العربية الفصحى، بل وأيضًا للغة العربية الدارجة. وكثير من هذه المسببات تؤدي إلى إحلال اللغات الأجنبية محل اللغتين: الفصحى والدارجة.

ومثال لهذه المسببات وجود مربيات للأطفال من جنسيات غير عربية، ومن الطبيعي أن يترك هذا أثرًا حاسمًا على لغة الأطفال. حيث أن المربية تمثل شخصية محورية للطفل في حياته المبكرة. وعندما ينشأ على كون اللغة لا تُعد عاملاً أساسيًا في التواصل مع المربية الآسيوية، فإن ذلك يجعله لا يحفل بهذه اللغة، لأنه لم يتذوق طعم وظيفتها التواصلية، بل عرف عن غيابها أكثر مما عرف عن وجودها. وهذه الظاهرة تعمل على إضعاف اللغة الفصحى والدَّراجة معًا. وهي تحل لغة الإشارة أو لغة أجنبية محل اللغة العربية، في ممارسات الأطفال. وخطورة تأثير هذه الظاهرة تتمثل في كونها تحدث وتنتشر في بلاد المشرق العربي، التي تُعتبر بلاد المركز في عملية الإشعاع والانتشار اللغوي العربي على بقية البلدان العربية. فإن ضعفت اللغة العربية لدى أجيال بأسرها في بلاد المركز، فما الذي يمكن أن نتوقع حدوثه في بلاد الأطراف؟

كما أن تغلغل العامية في كافة مراحل التعليم، سواء في المحاضرات والإلقاء، والكتب الدراسية، والمذكرات والملخصات الدراسية الأكثر انتشاراً وتأثيراً لدى أغلب التلاميذ، بحسب الاستقصاءات. بينما تم إهمال الكتب المدرسية، بما قد يشير إلى أن سبب ذلك ما هو إلا كونها أكثر وسائل التعليم التي تعتمد اللغة الفصحى كوسيلة اتصال. وفي هذا ما يدلل على وجود ميل كبير لدى التلاميذ لتجنب اللغة العربية الفصحى، والتوجه إلى الوسائل التي تستخدم اللغات المحكية والدارجة والعامية.

ويُضاف إلى ما سبق تفشي ظاهرة المدارس الأجنبية بالبلدان العربية، حيث يتم حالياً التعليم لأغلب المواد في المدارس الأجنبية باللغات الأجنبية وحدها، مع استبعاد اللغة العربية (سواء الفصحى أو الدراجة). والأدهى من ذلك أن الانتماء إلى هذه المدارس أصبح يُعتبر علامة على التميز والتفوق ودليلاً مؤكداً على ثروة أسرة التلميذ.

بل الأغرب من ذلك أن تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٣، اعتبر أن انتشار المدارس الأجنبية يُعد مؤشراً على حدوث تقدم جديد في مستوى التعليم في البلدان العربية. فالمطالع للتقرير يرى أنه يعتبر تأجيل تدريس اللغات الأجنبية إلى الصفوف المتأخرة (لضمان تمكن الأطفال من اللغة العربية أولاً) هو علامة على تخلف التعليم في الدول العربية، بل ويهلل لبداية اختفاء هذه السياسة السلبية ـ من وجهة نظر التقرير. بينما تثبت أغلب البحوث التربوية التي تجرى في الدول الأجنبية أن إكساب الطفل للغته الأم، يستدعي بالتأكيد تأخير تعليمه اللغة الأجنبية وأبجدياتها إلى الصفوف المتأخرة من الدراسة، دون التعجيل بها في الصفوف المبكرة.

فالحادث أن الطفل العربي حالياً ومستقبلاً أصبح ينخرط في تعليم أبجدية أجنبية ولغة أجنبية، قبل أن يكون قد أتقن بعد أبجديته ولغته العربية الفصحى (أو حتى لغته الدارجة المحكية). إن ظاهرة المدارس الأجنبية ـ رغم ما قد تتضمنه من إيجابيات على مستوى استيعاب أعداد من الأطفال خارج المدارس العامة ـ إنما تؤكد على غياب رؤية تعليمية لغوية واضحة لدى الحكومات العربية. فما تكسبه على صعيد التحصيل العلمي لدى الأطفال، نظن أنها تخسره على صعيد التحصيل اللغوي لديهم.

لكن الرؤية السائدة التي يستند إليها قيام وتفشي هذه المدارس تقوم على أساس أن اكتساب الطفل في مرحلة التنشئة الاجتماعية اللغات الأجنبية يُعتبر أكثر أهمية من مجرد الحرص على إتقانه اللغة العربية الفصحى. وذلك لأن سوق العمل يتطلب اللغة الأجنبية، بينما يُقْصي اللغة العربية (الفصحى والعامية). والظاهرة الأكثر جذرية وخطورة تتمثل في المدارس الأجنبية الخاضعة لإشراف دول أجنبية، حيث تُدرس مناهج لا تخضع لإشراف وزارات التعليم العربية. ولا تحتل اللغة العربية أي جزء من مناهجها. بل إن أغلب التلاميذ داخل هذه المدارس الأجنبية لا يحكون أو

يتحادثون حتى باللغة الدارجة أو العامية، بل يوعز إليهم بأن الحكي والحديث باللغة الأجنبية يدلل على الرقي والتحضر. وكأنما اللغة العربية أصبحت دَنَسًا يتعلم الطفل أن يتخلص منه.

اللغة العربية خارج مجال الاقتصاد:

إن ارتباط اللغة الأجنبية بمؤسسات التعليم أصبح لا فكاك منه. وأصبح كل من يتحدث عن تطوير التعليم، لابد وأنه يقصد إلى تطوير تعليم الرياضيات والعلوم واللغات الأجنبية، دون أن يتطرق إلى تطوير تعليم اللغة العربية، وذلك لنظرته إلى تعليم اللغة العربية على أنها ترف أو شيء من الماضي. بل إن أغلب الاستقصاءات تؤكد أن مادة اللغة العربية في أغلب المؤسسات التعليمية تُعتبر أقل المواد من ناحية الدرجات والتحصيل، وصاحبة أقل قدر من الاهتمام لدى التلاميذ والمدرسين على السواء. فمن المعروف أن مدرس اللغة العربية هو أسوأ المدرسين حظاً. فإتقان اللغة العربية أصبح لا يجدي صاحبه. فالوظائف التي يمكن أن يتقلدها نتيجة لذلك تقتصر على: تدريس اللغة العربية ـ الشعر ـ التصحيح اللغوي بالمؤسسات الإعلامية. وهذه ليست وظائف واعدة إذا ما قورنت بالوظائف المتاحة أمام متقني اللغات الأجنبية.

تأثير وسائل الإعلام:

تنقسم وسائل الإعلام إلى: مقروءة (الصحف)، ومسموعة (الإذاعة)، ومرئية (التلفاز)، وشبكية إلكترونية (الإنترنت). ولكل منها توزيعاته وتأثيراته الهائلة في العالم العربي. فيُعتبر انتشار الوسائل المرئية (التلفاز) هو الأعلى في أغلب دول العالم والدول العربية أيضًا. فالمتوسط العالمي لإتاحة أجهزة التلفاز في العالم يصل إلى ٥٦٣ جهازًا لكل ألف شخص. وهو أكبر بكثير من انتشار المذياع أو الصحف السيارة.

أما توافر التلفاز لدى الأفراد في الدول العربية، فهو يُعتبر بشكل عام أقل من المتوسط العالمي. ولكن يقع نصيب الأفراد في الدول العربية في منزلة وسط بين نصيب الأفراد في الدول متوسطة الدخل ونصيب الأفراد في الدول النامية.

كذلك يُلاحظ وجود علاقة طردية واضحة بين مستوى الدخل القومي للدولة ودرجة توافر وإتاحة وسائل الإعلام للأفراد. ففي مصر وتونس لا يتجاوز عدد أجهزة التلفاز لكل ألف شخص ٢٠٠ جهازًا، بينما يصل في سلطنة عمان إلى ٥٦٣ جهازًا لكل ألف شخص.

وقد تجاوز عدد القنوات الفضائية العربية ١٣٠ قناة على عربسات (القمر الصناعي العربي) ونايلسات (القمر الصناعي المصري)، حيث أكثر من ٢٥٪ من هذه القنوات غير تابعة لحكومات

عربية، وبالتالي قد اختارت هذه القنوات اللهجات واللغات العامية كلغة رسمية للبث. حيث إن ذلك يضمن لها انتشاراً ومشاهدة أوسع.

ويتجلى التأثير السلبي للتلفاز على الأطفال في أنه يُجسّد للطفل الصور المتخيّلة بدلاً من إثارة مخيّلته وحثّها على ابتداع الصور الذاتية، إضافة إلى أنه جذّاب وممتع بحيث يصرف الطفل عن القراءة أو يُقلّل من أهميتها لديه.

- **هناك جهود جيدة في مجال اللغة الفصحى من حيث تقديم الرسوم المتحركة للأطفال بهذه اللغة، على قناة سبيس تون (المستغرب أن اسم القناة نفسه هو أجنبي مكتوب بلغة عربية).**
- **قناة الجزيرة للأطفال بدأت مرحلة متقدمة من التثقيف الإعلامي للغة الطفل الفصحى من اهتمامها بالبرامج الوثائقية والحوارية باللغة العربية الفصحى، جنبًا إلى جنب مع الرسوم المتحركة فصيحة اللسان العربي.**

وتطغى على الإعلام المرئي المضامين الترفيهية والتأكيد على القيم الاستهلاكية وعلى برامج المسابقات، وما تؤكده من قيم الحظ وإشاعة الثراء بين المشاهدين دون عمل أو جهد يبرر حصولهم على الجوائز التلفزيونية. وهذا يجعلها تعتمد اللغات العامية واللهجات المحلية، كون هذه اللهجات أقرب إلى الترفيه والسطحية، مع عزوف اللغة الفصحى عن مثل هذه المناشط، حيث ترتبط في الأذهان بالقدسية والاحترام والأحداث الجادة. بالطبع هناك بعض المحطات القليلة التي اعتمدت اللغة العربية الفصحى في أغلب برامجها، مثل قناة العربية.

من الواضح أن التقسيم القائم للقنوات التي تستخدم الفصحى والأخرى التي تستخدم العامية، يعبر عن تكريس تخصيص مجالات بعينها للغة الفصحى لا تبرحها هي مجالات السياسة والأحداث الجادة. بينما تسود اللغات الدارجة فيما عدا ذلك، أي فيما يخص مجالات الترفيه والتحرر والاستمتاع والفاعلية الشخصية والأحلام والحياة اليومية.

تأثير وسائل الإعلام على اللغة العربية:

بحكم امتداد تأثير وسائل الإعلام وتعدد قنواته ومنابره ووسائطه، ونظراً إلى التأثير البالغ الذي يمارسه الإعلام في اللغة، وفي الحياة والمجتمع بصورة عامة ـ فإن العلاقة بين اللغة العربية والإعلام أضحت تشكل ظاهرة لغوية جديرة بالتأمل. فقد جاء تأثير الإعلام على اللغة العربية مزدوجًا، فهو إيجابي من ناحية وسالب من أخرى كما يلي :

يتمثل الجانب الإيجابي في أن اللغة العربية انتشرت وتوسَّع نطاق امتدادها وإشعاعها إلى أبعد المدى، بحيث يمكن القول إن العربية لم تعرف هذا الانتشار والذيوع في أي مرحلة من التاريخ.

وهذا مظهر إيجابي، باعتبار أن مكانة اللغة العربية قد تعززت كما لم يسبق لها من قبل، وأن الإقبال عليها زاد بدرجات فائقة، وأنها أصبحت لغة عالمية بالمعنى الواسع للكلمة.

ويتمثل الجانب السلبي في شيوع الخطأ في اللغة، وفُشُوِّ اللحن على ألسنة الناطقين بها، والتداول الواسع للأقيسة والتراكيب والصيغ والأساليب التي لا تمتّ بصلة إلى الفصحى، والتي تفرض نفسها على الحياة الثقافية والأدبية والإعلامية، فُيقتدي بها ويُنسج على منوالها، وذلك على حساب الفصحى التي تتوارى وتنعزل إلا في حالات استثنائية. وبذلك تصبح اللغة الهجينة هي القاعدة، واللغة الفصيحة هي الاستثناء. وهذا مظهر سلبي للظاهرة.

الطفل واكتساب اللغة:

تعني كلمة "طفل" أيَّ شخص لم يبلغ بعد سن الثامنة عشرة، وذلك وفق أحدث التعريفات الصادرة عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ٢٠٠٠. وتعني كلمة طفل حرفيًا في اللغة الفرنسية من «لا يتكلم» (**Infans**) ـ وهذا يعني أن الطفل كي ما يندمج في المجتمع ويحصل على هوية يتوجب أن يؤدى مقابلاً يتمثل في تعلم اللغة التي تحمل معانيها ومفاهيمها «الثقافة» المشتركة للمحيطين به.

وبناء على هذا، فإن الاعتبارات التربوية التي يمارسها الكبار إزاء الأطفال تتأسس على فرضية مفادها أن الأطفال قاصرون وليسوا قادرين على التفكير لأنفسهم، وأن من واجب الكبار التخطيط لمصائرهم نيابة عنهم، وهم يقومون بذلك حتى ينمو الأطفال ويصلوا إلى المرحلة التي ينالون عندها الاستقلال وحق الانفراد بتقرير المصير. لذلك فيجب أن ينطلق تقرير وتخطيط مصائر الأطفال من ارتباط موضوعي بمراحل النمو عند الأطفال واحتياجاتهم في كل مرحلة.

ويكتب بياجيه: "إن الهدف الأساسي من التربية هو خلق رجال قادرين على صنع أشياء جديدة، ولا يقومون فقط بتكرار ما صنعته الأجيال السابقة، رجال مبدعين، مبتكرين، ومكتشفين".

وتنبع قيمة التفكير التربوي الإبداعي من كونه يؤدي إلى مرونة الاختيار، فما ينقصه في السرعة يكسبه في نوعية القرار، فهو قادر على تحطيم المفاهيم والعادات المألوفة، وجعل العقل يفكر باتجاه أفكار واحتمالات جديدة. وفي هذا الاتجاه فقد تحررت التربية الحديثة من قيدَي المكان (المدرسة) والزمان (المدّة المحدّدة للدراسة)، وراحت تؤمن بالتعليم من المهد إلى اللحد، وتصطنع أساليب جديدة لإيصال المعرفة، وذلك عن طريق ما يُسمى بالمدارس البديلة أو الخلفية، والتي يُقصد بها عادة وسائل الإعلام.

ولذلك يجب على وسائل الإعلام الموجه للطفل؛ وبخاصة المقروءة منها أن تفصِّل خطابها على مقاس الطفل العربي. وذلك بأن تخطط العلاقة بين كلمات الخطاب الإعلامي ومحتواه؛ لتلائم العلاقة بين الطفل واللغة التي اكتسبها. وهذا يتضمن فهم ما يلي:

- **طريقة اكتساب الطفل العربي للغة الفصحى.**
- **حصيلة الكلمات المتوافرة لدى الطفل العربي في السن المستهدفة.**

وهناك أربعة تيارات تتقاسم الساحة التربوية العربية في مسألة إعادة النظر في تدريس اللغة للطفل العربي. وهي كما يلي:

تيار دعاة الفصحى:

ينطلق مناصرو هذا التيار من قولهم بأن إكساب الطفل اللغة الفصحى هي مهمة حضارية وتربوية ذات أولوية من الدرجة الأولى. أما اللغة العامية، فهي في نظرهم ظاهرة مشتركة بين جميع لغات العالم التي تختلف اللهجات المحلية في التعامل معها. وحدها اللغة الفصحى هي التي تستدعي الحرص على تعلمها وإتقانها، كون ذلك لا يتم بطريقة تلقائية إذا ما تُرك للطبيعة.

تيار دعاة العامية:

يرى مؤيدو هذا التيار أن الرصيد اللغوي الكبير والثري الذي يكتسبه الأطفال في الفترة المبكرة من حياتهم يُعتبر ثروة لا بد من الاستفادة منها. فاكتساب الطفل العربي للغة الدارجة العامية في مراحله المبكرة يمنحه القدرة على التعامل معها بشكل أفضل مما يحدث مع اللغة الفصحى. وبذلك فمن المنطقي أن يستمر التعليم بنفس اللغة التي ألفها الأطفال وتعود عليها، بدلاً من الاعتماد على اللغة الفصحى التي يجد الطفل صعوبة في فهمها والتعامل معها. فهم ينطلقون من فرضية أن استخدام اللغة العامية سيعمل على تحفيز التلاميذ وتشويقهم للإقبال على المعرفة. معتمدين مبدأ البساطة والوضوح وفق المنظار العام المألوف.

تيار الجمع بين الفصحى والعامية:

يرى أصحاب هذا التيار أن اللغة الدارجة العامية ليست بعيدة كل البعد عن اللغة الفصحى. بل إن القواعد المشتركة بينهما أكثر من القواعد المختلفة. ولذلك فإنه من الممكن دمج العامية في الفصحى. بحيث ينجم عن ذلك تسهيل التعليم وتقريبه من الأطفال. وينادي أصحاب هذا الرأي بالبدء في محاولة التوصل إلى لغة مرنة تجمع بين كل من الفصحى والعامية، ويمكن أن يطلق عليها اسم الفصحى المتوسطة أو الفصحى المعاصرة. وذلك باعتبارها خطوة أولى لترغيب وتعويد

التلاميذ على تقبُّل الفصحى. ثم يُصار بعد ذلك إلى تطبيق التعليم بهذه اللغة على نطاق أوسع في كافة الدول العربية.

الآمال المعقودة على تلاقح التيارات:

قد نتمكن ذات يوم من استخلاص منهج عربي موحد وشامل للمراحل الأولى من المدارس الابتدائية يتم تعميمه على البلاد العربية بشكل عام؛ لتصبح اللغة الدارجة ولغة الكتب واحدة موحدة كما يحدث في أغلب اللغات الحية في العالم. كذلك تشير بعض الأبحاث اللغوية إلى وجود علاقة قوية بين اللهجات العامية واللغة الفصحى. فما لا يقل عن (٧٠٪) من الكلمات ذات التكرار العالي في كتاب القراءة في الصفين الأول والثاني الابتدائي موجودة في اللغة الدارجة العامية. وأن نسبة الكلمات التي لا تمت إلى الفصحى بصلة والموجودة في اللغات الدارجة للأطفال لا تزيد عن ٧٪.

ونظن أنه بالإمكان تقليص الفجوة بين العاميات والفصحى. وذلك من خلال الارتقاء بالعامية وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها، فما العامية إلا أسلوب أداء الكلمة إلى السامع مثل إطالة الفتحة والألف أو تفخيمها ومثل تسهيل الهمزة أو تخفيفها فهي محصورة في جرس الألفاظ وصوت الكلمات وكل ما يتعلق بالأصوات وطبيعتها وكيفية أدائها.

ليست الظاهرة بالجديدة في اللغة العربية، فقد سايرت اللغة منذ العصر الجاهلي. فقد شهدت الحياة اللغوية مظهرين لغويين أو عدة مظاهر، وهو أمر بدهي في اللغة العربية. وقد نشأت هذه الازدواجية في الجزيرة العربية قبل الإسلام بين اللغة الفصحى ولهجات القبائل وإن كانت الأولى لغة الأدب والعهود والمواثيق وكانت الثانية لغة التفاهم في الحياة اليومية، ولم يكن هناك فارق كبير بين هذين المظهرين التعبيريين لأن اللهجات ليست لغات مستقلة، وإنما هي اختلافات صوتية وصرفية بين القبائل تتعلق بمظاهر الإمالة والفتح والهمز والتسهيل والإدغام والوقف والتصحيح والإعلال والقصر والمد.

توصيات مقترحة:

في إطار مواجهة متشددة لإعلام طاغ يؤثر سلبًا على لغة الطفل العربي الفصحى، التي تمثل قوام هويته، ومصدر قوته الرمزية، ورأسماله الثقافي ـ نوصي ببعض النقاط التي نراها مطلوبة في مواجهة التغريب الإعلامي للوسائط المؤثرة على لغة الطفل.

- **إدخال وسائط إعلامية متعددة في التعليم الأساسي لمواد اللغة العربية ومناهج الدراسة بها، حتى لا يكون الفارق بين تلقِّيها ـ على أهميتها ـ شاسعًا بينها وبين تلقي اللغات الأجنبية.**

- التوصية لوزراء الإعلام والثقافة بفرض نوع من الرقابة اللغوية على المنتجات الثقافية المصورة والمذاعة والمطبوعة للطفل العربي، دعمًا للغة العربية الفصحى.
- دعم ما يرعى اللغة العربية الفصحى فيما يقدم للطفل العربي من القنوات التليفزيونية وبرامجها والمجلات الموجهة للأطفال، وتعريب الألعاب الأكثر شيوعًا لديهم.
- إنشاء مسابقات للقراءة والكتابة بالفصحى من خلال وسائل الإعلام على مستوى الدول الأعضاء لتشجيع الأطفال على النطق والكتابة بها، والاستماع إليها.

تجربتنا في مجلة (العربي الصغير):

ملحق دراسة: (لغةُ الطفل العَربي في مَهبِّ لغاتِ العَولمة):

مجلات الأطفال هي تلك التي تحتوي مواد مكتوبة خصيصًا للأطفال، وفق مراحلهم العمرية المختلفة. يكتبه الكبار ويحرّرونه، وقد يشترك الأطفال في كتابة بعض الزوايا والموضوعات الصغيرة. ومع ذلك، يظل أدب الأطفال ـ بوجه عام ـ من إنتاج الكبار، أي أنه موجّه من الكبار إلى الصغار، بقصد تحقيق أهداف تربوية خاصة. وكثيرًا ما يقع كُتَّاب أدب الأطفال في الخطأ الناجم عن مخاطبتهم للطفل كما لو كان مجرد دماغ فارغ يحتاج إلى حشو بالمعارف.

وتستهدف أغلب هذه المجلات الأطفال في عمر (من ٥ سنوات إلى ١٥ سنة)، وما بعد ذلك. حيث إن الأطفال في هذه المرحلة يكونون قادرين على استعراض وقراءة المواد التي تضمها المجلات الخاصة بهم. ولا بد لهذه المجلات من الاحتكام في كل ما تنشره إلى الرصيد اللغوي العربي. وهذا الاحتكام هو الذي يجعل موادها مؤثرة في الطفل، إذا كانت لغتها مستمدة من الحصيلة اللغوية التي بدأت في التكون لدى الطفل. ويجب ألا يغيب هذا الهدف عن نظر كتاب مجلات الأطفال. بحيث تصبح مواد المجلة جذابة للطفل، تشدّه إليها وتتمكّن من خلال ذلك من تنمية مهاراته اللغوية والارتقاء بلغته العاميّة إلى الفصحى، أو تُضيّق الفجوة بينهما، وإكسابه أخيلة إبداعية تمكنه من التوافق مع واقعه واكتساب الطموح للعمل على تغييره.

فيتوجب على الكاتب للأطفال أن يوازن دومًا بين الرصيد اللغوي المتاح للطفل ولغة الإبداع التي يكتب بها الكاتب نصه. فيمكن مثلاً بعد أن يتم كتابة النص بحيث يبلور الفكرة، أن يلجأ إلى إعادة كتابته مرة أخرى بلغة أبسط تحتكم إلى الرصيد اللغوي الذي يتوافر للأطفال المستهدفين بالكتابة. بحيث تُعدّل ألفاظ النص بما لا يسيء إلى جماليته، وهذه مهمّة العاملين في الإعلام المقروء والمبدعين معًا، وإلا فإن خطاب الإعلام المقروء سيبقى عشوائيًا لا يصل إلى الطفل المتلقي ولا يؤثر فيه التأثير المطلوب.

العربي الصغير:

صدرت مجلة "العربي الصغير" عن وزارة الإعلام بدولة الكويت ابتداءً من فبراير ١٩٨٦ في ٦٤ صفحة. وقد حدّدت المجلة جمهورها على أنه أطفال المرحلة العليا (٥ـ١٥سنة). وهذا يعني أن مجلة العربي الصغير تعي من البداية صعوبة التوجُّه إلى الأطفال كلهم في مختلف مراحلهم العمرية. وهي بعيدة عن الادعاءات التي تروج لها بعض مجلات الأطفال التي تقول إنها لجميع الأطفال من سن ٥ سنوات إلى ٥٥ سنة، وما شابه ذلك. فمجلة العربي الصغير تدرك أن الأطفال في المراحل المختلفة لا يمثلون شريحة واحدة تحمل نفس الاهتمامات والرغبات والميول. ولذلك فقد حددت الشريحة التي تستطيع التوجه إليها بموادها من البداية.

وتتلخص أهداف مجلة العربي الصغير في خلق جيل من أبناء الوطن العربي مخلص للثقافة العربية، وواعٍ بروافد المعرفة، ومعتز بعروبته ومعتقده.

وفي هذا المسعى تصدر المجلة مقسمة إلى عدد من الأبواب المتنوّعة والتي تخاطب مختلف اهتمامات شريحة الأطفال المستهدفين.

وأبواب مجلة العربي الصغير تحوي ما يلي:

- **التراث العربي.**
- **الحكايات المعاصرة.**
- **القصص المصوّرة المؤلّفة من حلْقة واحدة.**
- **الجانب العلمي من التراث العربي بأسلوب المقالات المبسّطة.**
- **التعريف بالفنّ والفنّانين العرب والأجانب.**
- **التعريف بالشخصيات الإسلامية.**
- **الحوار حول قضية.**
- **التحقيقات المصوّرة.**
- **طرائق عمل الآلات.**
- **دوائر المعارف.**
- **إبداعات الأطفال ورسائلهم وصورهم.**

وتسعى المجلة دومًا إلى إقامة توازن بين الجانبين: الأدبي والعلمي، وبين الماضي والحاضر، إضافة إلى عنايتها بتنوع القيم وتنمية المهارات والقدرات. كما أنها تنأى بنفسها عن زجّ الطفل في مشكلات الحاضر العربي، إلا ما كان ليس بين الدول العربية خلاف حوله.

طريقة العربي الصغير في توظيف التراث:

التراث ينبوع ثَرّ للفكر والفن مما يعين على التواصل الحي بين ماضٍ ومستقبل، وهو يمنح الإنسان رؤية مجربة للوجود، تجعله على وعي أعمق بالوضع البشريً، بحيث تصبح الحبال موصولة بين الأولين والآخرين. وهكذا، يصبح التراث من أغنى المصادر لأدب الأطفال.

وتحرص مجلة العربي الصغير على توظيف التراث بأشكاله المتعددة بحيث تصوغ منه أدبًا صالحًا للأطفال، فتجعل منه معينًا متجددًا للكتابة للطفل. على أن التراث مختلف، وأساليب استخدامه متعددة.

أشكال التراث التي تنشر في العربي الصغير:

يتوزع التراث الذي يمكن تقديمه للأطفال إلى:

التراث الديني: شخصيات الأنبياء والشخصيات المقدسة.

- **التراث التاريخي: مثل الانتصارات والفتوحات والدعوات النبيلة وسيَر الشهداء، وشخصيات الحكام والأمراء والقادة الصالحين والخلفاء والأمراء.**
- **التراث الأدبي: مثل الشخصيات الأدبية الهامة والمبتدعة ممن كانوا رموزًا للتطور على مستوى الأدب والشعر والخطابة والفلسفة والتصوف.**
- **التراث الشعبي: مثل ألف ليلة وليلة، وسيَر الأبطال الشعبيين، والحكايات والنوادر مثل كليلة ودمنة.**
- **التراث الأسطوري: باعتباره وعاء للتجربة البشرية المبكرة بشكل عام على نحو فكري خصيب، وثمة أساطير كثيرة كانت أساسًا لأعمال أدبية كبرى.**

وتتلخص أسبابنا في توظيف التراث في أسباب فكرية، حيث يوفر التراث أرضية جاهزة ومعدة في المخاطبة، ولاسيما الناشئة مما يسهل عملية الاتصال على أرض صلبة، لأن التراث، في نهاية الأمر، هو عناصر الثقافة التي تتناقل من جيل إلى آخر. فالتراث يحتفظ بوحدة ثقافية مستمرة تعين على المخاطبة الناجحة. كما أن هناك أسبابًا فنية، لكون التراث يحمل قبليات الاتصال بجماهيره، بفاعلية لا يوفرها الأدب المستند إلى قوة التخيل الفردي للأديب المعاصر. ففي التراث إطار قريب من الذات الجمعية، وصياغات مستقرة في التعبير، توفر عناصر أليفة مع الوعي الجمعي.

فضلاً عن ذلك هناك أسباب تربوية، لقدرة التراث على المخاطبة من مصادر مبتدعة تحتاج إلى هامش مضاعف من التربية أو التثقيف لكي يكون بمقدور المتلقي، ولاسيما الطفل، أن يتفاعل معها. وهي مزية جاهزة يفتقر إليها الأدب المبتدع بعيداً عن التراث.

ونستطيع أن نصنف عناصر التراث الذي تقدمه مجلة العربي الصغير وفق ما يلي:

١- الأبطال والشخصيات الكبيرة والفاعلة في زمانها مثل القادة والزعماء، كصلاح الدين الأيوبي.

٢ـ المواقف العربية الساطعة في موقعة أو حادثة، كما هو الحال في «بطولات عربية».

٣ـ الآثار الشاخصة فيما تحكيه وتشير إليه من نوائب وإنجازات في الإسلام حضارة.

٤ـ الأشعار والمأثورات اللغوية العربية بأصالتها وقوتها وإعجازها.

٥ـ العلماء والمخترعين، الذين يمكن أن يتخذ الأطفال من حياتهم وسيرهم وتصرفاتهم نماذج وأمثلة تُحتذي، مثل البيطار والرازي.

٧ـ الموروث الشعبي: وهو يتراوح بين النثر والشعر، ويدور حول البطولات والفروسية والحرب، ومن أهم أبطال السير الشعبية المعروفة عنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن وأبو زيد الهلالي والأميرة ذات الهمة والظاهر بيبرس وغيرهم.

ونحرص على أن تكون المادة المقدمة في العربي الصغير تتوفَّر على بعض الصفات التالية إن لم يكن كلها:

١ـ عرض المادة بتسلسل منطقي.

٢ـ عرض بعض المادة في شكل أسئلة ومشكلات بحيث تثير قدرات الطفل على الحل والبحث والدرس.

٣ـ تتضمن المادة ـ كلما أمكن ـ عرضًا لبعض المواقف التي يتضح فيها إبداع العلماء وقدرتهم على الابتكار، وأساليبهم في حل المشكلات، وفي التفكير العلمي وما إلى ذلك.

٤ـ تصاحب المادة المكتوبة الصور والأشكال التوضيحية الجذابة المناسبة.

٥ـ تشجيع الأطفال على الكتابة والقراءة، بغرض إثراء لغة الطفل الفصحى. ففي العربي الصغير، نرى أنه من الضرورة أن نعوِّد الطفل على اللغة الفصحى التي سيعايشها في كتب المستقبل.

توظيف عنصر الصورة في مجلة العربي الصغير:

إنّ الرسوم والصور تعين خيال الطفل على الانطلاق الرحب، وتشكّل لديه صوراً ذهنية عن المواقف والأفكار والقيم المعالجة في مواد المجلة.

فالصورة هي ركن رئيس في تعزيز علاقة القراء الأطفال بالنص المكتوب. كما يشكل تقطيع النص إلى صور منظومة بصرية ذات دلالة يتم تكريسها بحسب مقتضيات النص وأهدافه.

فالسيناريو هو فن تحويل النص المكتوب إلى صور متنوعة، ومتعددة، سواء على التعاقب والتتابع الزمني التقليدي، أم على تقطيع الزمن بالتقديم والتأخير والارتداد إلى الخلف والاستشراف وغير ذلك من التقنيات.

إن سيناريو ما، مرسومًا، يُعمّق مضامين النص الأدبي، ويكشف خلال التلقي عن قدرات في السرد الفني البصري والتشويق والإثارة، ويشجع القارئ الطفل على المتابعة بحواسه جميعًا، حتى ليُخيل إليه أنه يشاهد "فيلمًا" متحركًا.

ولذلك تحرص العربي الصغير على تصوير أغلب القصص المنشورة فيها. فنحن نعتبر الصورة وسيلة هامة من وسائل التخيل المناسبة للطفل؛ حيث إن حصيلته اللغوية لم تنضج بعد كالكبار القادرين على ممارسة التخيل عن طريق قراءة النصوص المكتوبة دون صور.

ونرى أن اعتماد الرسم والتصوير في المجلة أمر أساسي لا يؤلّف عنصراً إخراجيًّا وحسب، بل هو مادة صحفية لها قيمة جمالية وثقافية خاصة بها. فقد يؤثر الرسم سلبًا على النص، أو قد يحقق الغرض المرجو منه. فالرسم مثلاً أقدر على تصوير الظلم والفرح للأطفال أكثر وأسرع من الكلمات المكتوبة. فمثلاً يستطيع الرسم تصوير اللص والظالم والإسرائيلي، بحدة الملامح والنظرة العدوانية، والكفّين الكبيرين. بما هو أبلغ من ألف كلمة ـ كما يقول المثل السائر. ناهيك عن قدرة الطفل على فهم الصورة، مقارنة بعجزه عن قراءة الألف كلمة.

أسلوب جديد في صور الأطفال:

ابتكرت العربي الصغير أسلوبًا جديداً في التعامل مع الصور المقدمة للأطفال. وكانت أول مجلة أطفال تنفذ هذا الأسلوب المغامر وقتها. فقد قمنا بإنزال الصور الفوتوغرافيّة ضمن المواد المقدمة للأطفال. وذلك بالذات في باب التحقيقات الصحفية التي تجريها المجلة عن موضوعات وأماكن تهم الأطفال.

والهدف من التصوير الفوتوغرافي يتمثل في إضفاء قدر من الواقعية على ما يُقدم للأطفال. فيدرك الطفل أن العالم ليس صوراً مرسومة وبسيطة كما تبدو في رسومات الكارتون. بل هناك صور أكثر تعقيداً (وهي الصور الفوتوغرافية) التي تقدم له كمًّا هائلاً من التفصيلات المعقدة التي لا تتوافر بأي حال في الصور الأخرى المرسومة باليد. وهكذا يقترب الطفل مع الصور الفوتوغرافية من العالم الواقعي أكثر.

التحقيق الصحفي في مجلة العربي الصغير:

ثمّة تساؤلات كثيرة يطرحها الأطفال حول كثير من الأمور الحياتية، الخاصة والعامة، لأنّهم لا يستطيعون الوصول إليها وسبر أغوارها بمفردهم. وهنا تأتي وظيفة التحقيق الصحفي. فهو يمثل محاولة أساسية في الإجابة عن العديد من هذه التساؤلات.

والصعوبة في التحقيق الصحفي للأطفال، تكمن في كيفية تقديم الأجوبة للأطفال بلغة مشوّقة وبأسلوب سهل، وبطريقة مقبولة ومقنعة، عن الأسرار والحقائق والمفاهيم والقضايا الاجتماعية والأخلاقية.. وغيرها. بحيث يستطيعون، من خلال التحقيق الصحفي، استجلاء الكثير مما يدور في أذهانهم، ويزدادون علمًا بالبيئة والعالم. وهذا ما يتطلب أن يكون التحقيق الصحفي الموجّه إلى الأطفال، بمثابة لوحة فنية/ بانورامية، تفسر الوقائع والأحداث، بأسبابها وأبعادها والمشاركين في صنعها.

ولئن تعدّدت أنواع وأشكال التحقيق الصحفي المقدم على صفحات مجلة العربي الصغير، لتشمل التحقيقات التفسيرية والإرشادية والتعليمية والترفيهية، إلا أننا وجدنا أن القالب الأكثر تكراراً وملاءمة للأطفال هو الأسلوب القصصي.

فن المقال الصحفي في العربي الصغير:

إنّ المقال الصحفي المقدّم للأطفال، لا يرتبط بقالب تعبيري محدّد، ولا يلتزم شكلاً أدبيًّا معيّنًا.. وأبرز ما يميّز هذا المقال، أنّه يخاطب الطفل مخاطبة الصديق للصديق، حيث ينقل له الفكرة أو الرأي أو المعلومة بسرعة رشيقة وهدوء لطيف، وكأنّ ثمّة علاقة حميمية تربط بين الكاتب والطفل، مهّدت للكاتب أن يتحدّث إلى الطفل حديثًا وديًّا مباشراً. عبر معالجة موضوعات متفرقة مفيدة عن البيئة والمخلوقات الحية، وفيها تنوع وشمولية ومعلومات عامة.

قصص الخيال العلمي في العربي الصغير:

قصص الخيال العلمي هي أدب وليست علمًا. ذلك أن كاتب هذه القصص لا يُقدِّم لقرائه كتابًا علميًّا بغية تغذيتهم بما يضمه من معارف علمية نظرية وتطبيقية بل يقدم لهم أخيلة وقصة وحبكة ما بغية إمتاعهم، لا إعلامهم. ومن خلال هذا الإمتاع يُزودّهم بالمعارف العلمية النظرية والتطبيقية. وهذا هو ما يحكم انتماء قصص الخيال العلمي إلى الأجناس الأدبية والتخيلية.

لذلك تخلص قصص الخيال العلمي المقدمة في العربي الصغير لهدف التخيل، ويتجلى هذا الإخلاص بإعلائها الجانب الفنّي وتمسّكها به، بما يعنيه هذا الجانب من قدرة على رسم حوادث ومجتمعات تقنع الطفل وتمتعه وتؤثّر فيه.

إلا أن الطبيعة الأدبية ليست خالصة في قصص الخيال العلمي، بل هي مقيَّدة بالمضمون العلمي الذي يحتويه الخطاب الأدبي. ومن ثَمَّ يحتاج القاص في هذا المجال إلى معرفة علمية غزيرة ومتماسكة.

ولذلك نحرص في العربي الصغير على أن يجتمع في قصص الخيال العلمي كل من فن القص، والمعرفة العلمية. فكل منهما لا يكفي وحده لكي تكون قصة الخيال العلمي صالحة للنشر. بل يجب اجتماع الفن القصصي والمعرفة العلمية معًا. وتُعتبر مهمة الجمع بينهما من أصعب المهام. حيث يعاني الوطن العربي من ضعف في الثقافة العلمية عمومًا ولدى الأدباء خصوصًا. ذلك أننا اعتدنا الفصل بين الأدب والعلم نظراً وممارسة.

أهداف مجلة العربي الصغير:

تهدف مجلة العربي الصغير من خلال توجهها إلى الأطفال من سن (٥ـ ١٥ سنة) إلى تحقيق أهداف أساسية، هي:

- **تزويد الطفل العربي بالعديد من المعارف الأساسية، في مجالات العلوم والتاريخ والدين بأسلوب مشوق وجذاب يمزج القصة بالمعلومة والحقيقة بالخيال.**
- **إثراء خيال الطفل لغويًا وبصريًا من خلال القصص التي يقرؤها والرسوم التي يشاهدها.**
- **التأكيد على القيم الأساسية للإنسان العربي، وإعطاء الطفل الأسس لبناء مستقبل يعتمد على القيم والمبادئ.**
- **المساهمة في تكوين أفراد يحملون اتجاهات وطنية إسلامية قومية مستنيرة.**

منظومة القيم بمجلة العربي الصغير:

تحرص مجلة العربي الصغير على منظومة متكاملة من القيم التي تتوخى تحققها وتضمينها في كافة الأعمال والمواد المنشورة بالمجلة. فمجلة العربي الصغير لا تقيد نفسها بالتوجهات القطرية الضيقة، بل تحرص على تبني منظومة قيم تشمل ما يلي:

١- القيم الدينية الأصيلة والواضحة التي تمنح الطفل التوازن النفسي والأمن والثقة بالحياة، وتؤكد على النزعة الإنسانية ووحدة البشر أمام خالقهم، وتنزع إلى تحرير الإنسان من مخاوفه وأوهامه، بالشكل الذي يمكن للطفل أن يتقبلها وتؤثر في سلوكه.

٢ـ القيم العربية التي تؤكد انتماء الطفل إلى أمته العربية، وتحريره في الوقت ذاته من التعصب العرقي أو الطائفي أو المذهبي أو الإقليمي، وتبرز تفاعل الثقافة العربية مع الثقافات الإنسانية في الماضي والحاضر، كما تبرز التوجه العام والإنساني للثقافة العربية.

٣ـ القيم الإنسانية المعاصرة، مع إبراز جذورها في الماضي وتطورها في الحاضر، وتوجهها للمستقبل، مثل احترام العقل، النظرة العلمية والموضوعية، الحق، الواجب، احترام الآخر واستقلاليته، معنى الحرية، حدود الحرية، قيمة العمل، الإبداع، الإنتاج، المبادأة الإيجابية، أهمية الوقت، مع الأخذ بعين الاعتبار تداخل هذه الحلقات والمنظومات.

غلاف مجلة العربي الصغير:

يمتاز الغلاف بتنوع ممتاز في الموضوعات الموظفة، وهو يتكون من عنصر ثابت في شكله الإخراجي العام، وعنصر متحرك من خلال الرسومات والألوان التي تتغير مع كل عدد، وكذلك من خلال تعدد رساميه، مما يعكس تنويعًا في الخطوط وطريقة التصوير نفسها من عدد لعدد، فضلاً عن وجود الطفل العربي بطلاً للأعداد الأخيرة من المجلة، كما ظهر لأطفال من فلسطين والكويت، أو صور الكائنات الحية التي يحبها الأطفال كثيراً.

ونحن نعتقد بفضل توزيع العربي الصغير الذي تنامي في خمسة عشر عامًا إلى ٤٠ ألف نسخة، وفي آخر خمسة أعوام إلى أكثر من ١٢٥ ألف نسخة، أننا على الطريق الصحيح، وتثلج صدورنا رسائل تطلب منا اعتماد العربي الصغير في مناهج دراسية، للالتزام بالفصحى، وتكريس كل هذه المفاهيم، الذي يجعلنا نفخر بهذه التجربة، وإن كان ذلك لا يعني التوقف عندها، بل محاولة دائمة منا للتطوير، من أجل لغة عربية سليمة، وثقافة عربية رفيعة، لأطفالنا العرب، في مواجهة لغات العولمة.